أنطونان أرطو

الأسرارُ الأبديَّةُ للثّقافَةِ

لكلّ ثقافةٍ أصيلةٍ أسْرَارُهَا.

لذلك، قبل أن نتحدَّث عن الأُسُسِ الكونيَّةِ لِلثّقافة، يجب أن نتحدَّثَ عن الأَسْرارِ الأبديَّةِ للثّقافة، أي الأسرارِ التي لم يكتشفها الانسانُ أبداً.

الثّقافةُ هي الدَّفْقُ الرقيق للحياة في الجسم المُتَيَقِّظِ للانْسَانِ. ولكن، لا أَحَدَ استطاعَ أن يقولَ ما هي الحياةُ. فالقولُ بأزْهرَارِ الرّوحِ الأبديّ للثَّقَافَةِ داخلَ الإنسانِ هو القَوْلُ بِجَهْلِ الإنسانِ أمام يَنَابِيعِ حياته الحقيقيّة.

هذا التّواضع هُوَ بالذّاتِ أَسَاسُ العِلْمِ. لأنَّ الجَهْلَ أكثرُ إثَارَةٍ من العلم، لأنّه يَحُثُّ فوق كلّ شيءٍ على اجْتِنَابِ الخطأ.

إنّ الجَهْلَ، عندما يكون مُسْتَنِيراً وواعِياً، يُصبِحُ إسْمَنْتَ الحَقيقةِ.

والانْسَانُ الذي يَرْغَبُ في أن يبنيَ على أرضٍ صلبةٍ يَعْرِفُ لِتَوِّهِ **أين يجب عليه ألّا يَضَعَ قَدَمَيْهِ**، ما دام الوعيُ مَانِعُهُ.

لاشكَ أنّ مصدَرَ الموجوداتِ غامضٌ، لكنَّ الانسانَ المُدْرِكَ ــ في بدايات مَعْرِفَتِهِ ــ يُهَيِّءُ طريقاً، أو حاشيةً، أو موضعاً يُمْكِنُ أن يَتَجَلَّى الغموضُ الكونيُّ دَاخِلَهَا.

الغريبُ في الانسانِ أنَّهُ لا يعرفُ من أينَ أتى، لكنَّهُ يستعين بجهله ــ ذلك **المُتَأصِّلِ** فيه ــ ليعرفَ بدقَّةٍ أين عليه أن يَمْضِيَ.

والانسانُ هنا يستفيد من الموقِفِ التّجريبيّ، أي من روح الافتراضِ المنطقيّ والاستخدامِ النّاجعِ والمُثْمِرِ لخياله الّذي لا يَتْعَبُ.

وهو، عندما يحتاجُ إلى مساعدةٍ، يُحَوِّلُ نظراته نحو الماضي ويستخدم ثِمَارَ تلكَ المسيرة العريقة والمُتَعَثِّرَةِ لِبَنِي الانسَانِ وقد انتهوا إلى تجريد الطبيعة من أسرارها، بخيالهم وافتراضاتهم.

لكنَّ السِّرَّ الحقيقيَّ لن يَكْشِفَهُ أحدٌ، فهو يفوق كلَّ وصفٍ. وفي عمقِ كلِّ ثقافة حقيقيّةٍ تَكْمُنُ بالضَّرورَةِ أسرارٌ تَفُوقُ الوَصْفَ، فهي تنبثِقُ من تلك الحاشيةِ التي من فراغٍ، والتي يَضْطَرُّنا جَهْلُنا الأبَدِيُّ إلى حشرِ أُصُولِ الحقيقةِ دَاخِلَهَا.

لا تُوجدُ حضارةٌ أو ثقافةٌ أكثر **عقلانيّةً** من حضارةِ الصّينِ وثقافَتِهَا حيث بلغت السّيطرةُ على الطبيعةِ نهايتَها القُصْوَى، ولكنَّ السّيطرةَ على الطّبيعةِ كانت، فقط، لغايَةِ إطفاءِ عَتْمَتِهَا. لا وجودَ لآثارِ الفكرِ الغيبيِّ، أو حتّى للفكرِ الصّوفيِّ في التّصوّراتِ العقلانيّةِ للصّينِ ؛ كلُّ شيء في هذه التّصوّراتِ واقعيٌّ، وكلُّ واقعٍ فيها محسوسٌ. لكنَّ «طَاوْتِي كِنْجْ» للاوْتْسِي يُعْلِنُ وجودَ الفراغِ في مِحْوَرِ **الكُلّ**، أي في مِحْوَرِ الكُلِّ الكونيِّ. مَعْنَى ذلك أنَّهُ يُوجَدُ فراغٌ لن يَمْلأهُ العِلْمُ أبداً، في حين أنّ الشّعرَ، إذا اعْتَبَرْنَاهُ أداةً عقلانيّةً ونافِعَةً للحَدَسِ، فإنَّهُ يستطيع مُسَاعَدَتَنَا في وضعِ الأُسُسِ التي تسمَحُ لنا بالتّقَدُّمِ.

إنَّ المكسيكَ القديمَ ساهمَ بقسطٍ كبيرٍ في تأليفِ الكنزِ السِّرِّي الذي تَتَغَذّى الانسانيّةُ منه منذُ الأزَلِ.

فنحن نُدِينُ لَهُ بكشوفاتٍ سيكولوجيّةٍ من الطّرازِ الأوّلِ، تلك الكشوفاتُ التي كانت القرون الوسطى الأوروبية تُشيرُ إلَيْهَا بمَرْمُوزَةِ العالَمِ الكبيرِ والعَالَمِ الصّغيرِ، وهيَ تضع الإنسانَ، بما هو كونٌ مُصَغَّرٌ، في نقطة التقاءِ كلِّ القُوَى الكونيّةِ.

إذَا اعْتُبِرَ الإنْسَانُ، هكذا، كوناً صغيراً، فإنَّهُ **يكونُ بعيداً عن اليَأسِ**. ومثل هذا اليأس ــ الذي سُمِّيَ «داء العصرِ» والذي ظَهَرَ من جديدٍ في فرنسا ولكن في شكلٍ مُفْزِعٍ تَدُلُّ عليه عمليّاتُ الانتحارِ المُدَوِّيَةِ في عهدِ السُّوريالِيَّة ــ هذا اليأسُ كان إذن يَتَلاشَى تلقائيا فكلُّ قُوَى الكونِ كانت تُشاركُ في امتصاصِهِ.

كان الانسانُ يقفُ في حالةِ توازنٍ فوق الكونِ، ويتنفَّسُ معَ الحياةِ في الكونِ، ويمتلك وسائلَ معروفةً لمُعَالَجَةِ الحياةِ النّفسيّةِ من خلال الكونِ.

إنّ إيقاظَ حياةِ الكونِ المُعتِّمةِ والبحثِ دَاخِلَهَا عن مُساعَدَاتٍ، كان وسيلةً للصّراعِ ضدَّ بعضِ الجرائِمِ، أي ضدَّ صِنْفٍ معيّنٍ من الجرائِمِ الغامضةِ.

لم يكن التّعليمُ مثلما هو عليه اليَوْمَ، أي تقنيةً بسيطةً **لتَمْرِينِ الذّاكِرَةِ**، بل كان آسْتِحْضَاراً ماديّاً للقُوَى، أو إنّ التّعليمَ، إنْ صَحّ التّعبيرُ، كان **يَصْقُلُ** جسمَ الانسانِ حتّى تنبعثَ القُوَى دَاخِلَهُ.

إنَّ المَسْرَحَ والحَفَلَاتِ المقدَّسَةِ الكُبْرى بِوَمِيضِ تَدافُعِ أصْوَاتِهَا، وإعَادَاتِهَا الايقَاعِيَّةِ للصُّوَرِ آلتي تَغُوصُ داخِلَ اللّاوَعْي الانسانيِّ، تَصْلُحُ كُلُّهَا لذَلِكَ.

والطُّوطَمِيَّةُ لم تكنْ شعوذةً فظَّةً، أو معتقدًا خرافيًّا يرجِعُ إلى العهودِ الانسانيّةِ الأولى، بل كانت تطبيقاً عَمَلِياً لعِلْمٍ قائمٍ. إنْ لم يكنْ كذلك، فَبِمَاذَا نحنُ مُكَوَّنونَ ؟ هل يَعْتَبِرُ الانْسَانُ نَفْسَهُ فريداً، دونَ صِلَاتٍ تربطهُ بحياةِ الأنواعِ الأخرَى ــ الأزهارُ، والنّباتاتُ، والغلالُ ــ، أو تربِطُهُ بحياةِ مدينةٍ، أو نهرٍ، أو منظرٍ طبيعيٍّ، أو غابةٍ ؟

إنَّ روحَ المادّةِ هي نفسُها في كلِّ الأشياءِ. والطّقوسُ الدّينيّةُ اليومَ كانت في الماضي تبدُو مُجَرَّدَةً من محتواها الخرافيِّ. وذلك بفضل المسرحِ الذي كان قوّةً إجتماعيّةً تَعْمَلُ بوسائلَ طقوسيّةٍ وعِلْمِيّةٍ خارجَ وعي الشّعوبِ التي حَرَّضَتْهَا الأديانُ على التّعصُّبِ.

إنّنَا نشتركُ في كلِّ الأشكالِ الممكنةِ للحياةِ. ولَا وَعْيُنَا الانسانيُّ يُثْقِلُهُ تأسُّنٌ ألفيٌّ. وليس من العقلِ أن نَحُدَّ الحَيَاةَ. إنّ شيئاً مِمَّا كنّا في المَاضِي وخاصّةَ **مِمَّا يجبُ علينا أن نكونَ اليومَ** يَرْقُدُ باصرَارٍ في الحجارةِ، والنّبَاتاتِ، والحيواناتِ، ومناظرِ الطّبيعةِ والغاباتِ.

هناك ذَرّاتٌ من إنّيّتنا الماضية أو الآتية تهيمُ في الطّبيعة حيثُ تعمل قوانين كونيّة دقيقة على تجميعِها. ومن العدل أن نَبْحَثَ عن إجاباتٍ فعّالةٍ، وسريعة، وسهلة أيضا، في كلّ العناصر المنحلّة.

إنّ في عمليّة الوعي بكلّ ما يُوَحّدُنا، ماديّاً، بالحياة العامّة موقفاً عِلْمِياً، لا يستطيع العلم اليوم دَحْضَهُ، ما دامت الكُشُوفَاتُ الفيزيائيّة الأخيرة تَخْتَزِلُ العالَمَ في شكل طاقةٍ، وما دامت الكشوفاتُ السيكولوجيّة الأخيرة تُثْبِتُ أنَّ الانْسَانَ ليسَ جوهراً ثَابِتاً، وأنّه، بالنّواحِي الخفيّةِ التي في وعيِهِ، ينتمي إلى المستقبل بنفسِ الدّرجةِ التي ينتمي بها إلى المَاضِي.

يَمْلِكُ لَاوَعْيُ كلِّ إنْسَانٍ، ولكن بدرجة مختلفة من الأهمّية وحسب قوّة عبقريّتِهِ الذّاتية، كنزاً من الصّور العريقة التي ألبستها أجيالُ المكسيكِ القديم مِعْطَفاً من المَرْمُوزَاتِ الغامضة.

لذلك، نَنْتَظِرُ، إلى جانب ثورةٍ إجتماعيّة واقتصاديّة **ضروريّة**، ثورةً أُخرَى في الوَعْي تُمَكِّنُنَا من معالجة الحياة.

وعلَى المكسيكِ الحديثِ أن يقوم بهذه الثّورة.

هذا النّصّ للشّاعر السّوريالي الفرنسي أنطونان أرطو كُتِبَ عند إقامة الكاتب في المكسيك، قبيل عودته إلى باريس ودخوله مستشفى «روديس» للأمراض النّفسيّة، ونُشِرَ بالاسبانيّة بصحيفة «النائيونال» بتاريخ 1 غشت 1936. النّصّ الأصلي، أي الفرنسي، لهذا المقال مفقود. لذلك أُعِيدَ نقلُ النّصّ إلى الفرنسيّة بمشاركة فيليب سوليرز، وهو اختصاصيّ في دراسة أعمال الكاتب «الملعون» : أنطونان أرطو الذي قاطع بدايةً من الثّلاثينات مجموعة السّورياليّين لتوجُّهِهَا الماركسي الدّوغمائي وفرّ من الغرب ــ حسب تعبيره ــ للبحث عن آفاق حيويّة للثّقافة خارج الأنماطِ العلمانيّة والبورجوازيّة المتحجّرة. وسفره إلى المكسيك يندرج ضمن هذا التّوجّه الثّوري الجديد.

تُرْجِمَ هذا النّصّ إلى العربيّة عن كتاب «رسائل ثوريّة» الذي صدر في باريس عن دار «جاليمار»، سنة 1971. وهو من كتب أرطو العديدة التي نُشِرَت بعد موتِهِ وبعد أن أعْلَنَ المثقّفون الطّلائعيّون في فرنسا عن ضرورة إعادة الاعتبار إلى هذا الكاتب الذي عاش حياة كئيبة وسيّئة وخلّف كتابات مثيرة أزعجت في الثّلاثينات والأربعينات من هذا القرن كثيرا من المثقّفين المحافظين أو الماركسيين الدّوغمائيين. (المترجم).

ترجم النص : محمد رضا الكافي.